مؤتمران علميان

للاب لويس شيخو اليسوعي

رجعنا والحمد لله من مؤتمري برلين وكوبنهاغ اللذين دُعيت الى حضورهما رسمياً مدرستنا الكلية فاوفد الرؤساء حضرة الاب هنري لامنس والفقير كاتب هذه الاسطر لتمثل كلية القديس يوسف في هذين المجمعين العلميين. فقمنا بهذه المهمة بما امكننا من النشاط تلبيةً لدعوة مَن القينا في ايديهم زمام امرنا وكأنّا بقرّائنا الادباء يرغبون الينا بان نصف لهم سفرنا الى تلك الاقطار القاصية وتفيدهم عمّا جرى في المؤتمرين من الابحاث العلمية ليقفوا على احوالهما وينتفعوا من نتائجهما ويحذوا حذوهما بانشاء النوادي العلمية وعقد الجمعيات لتنشيط المعارف العمومية

رحلتنا الى المؤتمرين

كان موعد المؤتمر الاول الذي قُضي علينا بحضوره في العشر الاوّل من آب فسافرنا من بيروت في مساء ٢١ تموز راكبين باخرة لشركة المساجري الافرنسية تُدعى اكواتور فكانت رحلتنا في مثل هذا الفصل مدعاة للهناء بصفاء اديم السماء وهدوّ تيّار البحر فبلغنا مرسيلية في ٢٩ من الشهر بعد ان ارسينا مرّتين في بورت سعيد والاسكندرية فتحققنا ما صارت اليه هاتان المدينتان من الحضارة والترقي منذ ابصرناهما آخر مرّة قبل عشر سنوات. لولا انّ احوال التجارة أصيبت مؤخّرًا بضربة لازبة في كل القطر المصريّ فكادت تُلحق بالدقماء كثيرين من اهلها واصحاب ثروتها وانما الامل معقود بانقشاع هذه السحابة. فعسى ان تكون هذه الازمة عبرةً لمحبّي المضاربات وزاجراً لطالبي الارباح السريعة دون كدّ وعناء فيعلمون انّ الغنى الثابت لا يُنال الّا بالمساعي الطيّبة والمعاملات المثمرة بالتروي والمتاجرات المعقولة

اتّسعت مرسيلية منذ زمن قريب حتى اتّصلت ابنيتها بابنية خمس من القرى المجاورة التي نُظمت في سلكها فاصبحت بذلك المدينة الثانية لفرنسة من حيث عدد سكّانها. امّا ميناها فهو مصدر ثروتها يردهُ او يصدر منهُ نحو ستة ملايين طنّ من

السلع والمال المشحون في كل عام ومع سعة هذه التجارة البحريَّة تغلبها باريس بتجارة نهرها الذي ترتبي مشحوناتهُ من العاصمة واليها على عشرة ملايين من الطنَّات

ووافق وصولنا الى مرسيلية فتوح معرض الكهربا. فيها فأُقيم لذلك معاهد فسيحة نُظمت فيها انواع الآلات على اختلاف اشكالها وصنوف فوائدهـا فيأخذ تنظيمها بمجامع القلوب ويدهش الناظر اليها لاسيما في الليل اذ تمتدُّ اروقة الظلمـة فتلوح تلك الآلات بمظاهر نوريَّة عجيبة من اكلَّة واقواس وصور زهور وحيوانات وأبنية تتَّقد كلها كشعلة من النار بالالوان الزاهية والنقوش البهيـة الرائعة ما يحقِّق قراسة بعض القائلين عن القرن العشرين انهُ سيُدعى بعصر الكهربا.

ونحن في مرسيلية بلغتنا الانباء تترى في ما جرى في الاستانة العليَّة من الانقلاب السياسيّ بصدور الارادة السنيَّة لكل الرعايا العثمانيين باستعادة القـانون الاساسيّ ومجلس الأمَّة المعروف بمجلس المبعوثان فوقع لدينا هـذا الخبر موقعاً طيِّباً وشكرنا الله على هذه المنَّة وطلبنا اليهِ من صميم الفؤاد بأن يجعل هذه الامور فاتحةً لعصر جديد تنشر بهِ صوالح البلاد وتزيد الالفة والترقي بين العباد

ووجدنا ليون لا تزال تتقدم على سواها بحرائرها ومنسوجاتها ومعاملها العديدة. وقد توقفنا الى مزارها الشهير الذي يُشرف على البلد والمختص باكرام العذراء الطاهرة وهو من اكبر معابد فرنسة المستحدثة. شيَّدهُ المسيو بوسان احد المهندسين البارعين على رسم مستطرف لوفاء نذر الاهلين بعد الحرب السبعينية. وقد صرف في بنائهِ نيِّفاً وعشرين مليوناً من الفرنكات تبرَّع بها المحسنون من الكاثوليك بيد سخيَّة وهو لا يزال ساعياً في اتمام العمل وزخرفتهِ ونقشهِ ليصبح آيةً هندسية بين البنايات العصريَّة

قطعنا باريس ولم نتريَّث بها وهي في هذا الفصل من السنة اهدى منهـا في بقية فصول العام لخروج كثير من اهاليهـا الى الاصطياف في ضواحي البلد وكذلك مجلسا الأمة يبطلان عن الاعمال كما انَّ المدارس والنوادي العلميَّة تُقفل ويخلد اصحابها الى الراحة والسكينة وكان رئيس الجمهوريَّة قد خرج الى سياحتهِ في البلاد الشمالية فزار دنيمرك واسوج ونروج وروسيَّة والجرائد ملأى من تفاصيل رحلتهِ السياسية واجتماعهِ بملوك الشمال

وفي ٢ آب مررنا ببلاد بلجكة فشاهدنا بهـا قطرًا صغير المساحة الَّا انهُ واسع

التجارة بليغ الصناعة كثير الثروة بلغته حكومته الكاثوليكية منذ ربع قرن الغاية في النجاح واسباب التقدم حتى صار في مقدمة البلاد المتمدنة لا ينقصهُ شيء من محاسن الدين ومرافق الدنيا

لمَّا خاصتها بروكسل فعلى ترقٍ مستديم. كنَّا قبل ثلاث سنوات زرنا ضاحيةً منها خاليةً من السكن كانت لشبه بالبريَّة واليوم اضحت عامرة بالسكَّان تسير اليها قواطر الكهرباء وتمتدُّ فيها الحدائق الغنَّاء. وهناك شُيِّدت مدرسة كبيرة للآباء اليسوعيين البلجكيِّين جمعت كل المحسنات الهندسيَّة التي توافق المعاهد التهذيبية حتى صار الزوَّار يقصدونها من انكلترَّة وفرنسة ليطلعوا على تنظيمها ويجارونها في طريقتها الهندسيَّة. وفي هذه المدرسة تسكن جمعيَّة البولنديين الذين يشتغلون منذ ثلثمائة سنة بجمع اعمال القديسين ونشرها وانتقادها (اطلب المشرق ٨ : ٤٨٤)

وكان الشغل الشاغل لحكومة بلجكة عند مرورنا فيها انها مسألة الكونغو التي اراد جلالة الملك ليوبلد ان يضمَّها الى مملكتهِ بعد ان كانت ملكهُ الخاصّ وذلك تحت شروط اشترطها على الشعب البلجكيّ وجدها بعضهم ثقيلة على كاهل الدولة

كان مسيرنا من بلجكة الى المانية على طريق هولندة وهي شقيقة بلجكة مدَّة اجيال عديدة واليوم وصيفتها وقرينتها في الاعمال النافعة. واتَّفق اننا اجتزنا في انحائها في يوم مولد ملكة البلاد وهلمين فاقام الاهلون الافراح واجتمعوا في النوادي والمتنزهات وزيَّنوا الشوارع. وكان البروتستانت والكاثوليك قلباً واحداً في هذه المظاهرات يلهجون جميعاً بحامد اصاحبة العيد. ومما لحظنا في كاثوليك هولندة تحمُّسهم الدينيّ فكنَّا نراهم يتقاطرون الى المعابد ويتلون السبحة في طريقهم دون حياء بشري ويؤدُّون للاكليروس كلّ شارات الاكرام والوقار حتى ان الكاهن في طريقهِ مشغول في ردّ السلام على كل من يلقاهُ. اما الحكومة فانَّها تعدُّهم من اصدق رعاياها واشدّهم غيرةً على صوالح البلاد

دخلنا التخوم الالمانية في ٤ آب على طريق « آخن » التي يدعوها الفرنج إكس لاشابال من اقدم حواضر المانية المشهورة في ايام كارلس الكبير ملك فرنسة وفيها كان كرسيّ مملكتهِ وقد ترى فيها حتى يومنا آثار راقية الى زمانهِ سُررنا بزيارتها. ثم واصلنا السير قاصدين كولونية. فمررنا بمقاطعات يغلب عليها السكان الكاثوليك. وللدين في هذه

الولايات الشأن العظيم والسهم الأوفى. وكان الكاثوليك قبل وصولنا بأيام قد انجزوا مؤتمرهم السنوي برونق لم يسبق له مثيل قبلاً. قيل انّ عدد الفئة الذين مشوا في موكب المؤتمر آخر يوم منهُ أناف على ستين الفاً حضروا الى دوسلدرف من كل جهات المانية فاذهلوا بإتيانهم الحيّ كل من رآهم

ودخلنا في مساء ذلك اليوم مدينة كولونية فتزانا اليها منتظرين بضع ساعات قطار برلين فسمح لنا هذا التأخير بان نزور البلدة وبعض آثارها العجيبة اخصُّها كنيستها الكاتدرائية التي تجمع فيها كل محاسن الهندسة الكنسية من الطرز المعروف بالغوطي ومن رآها بنقوشها وزخارفها لا يكاد يصدّق أنها مبنية بالحجارة وانما يحسبها تخاريم من الورق المتوّى تفنّنت فيه ايدي الصنعة. وواجهة هذا البناء العجيب مزدانة بثنين من التماثيل المقدّسة التي تسحر اللبّ ببدائعها. وفي اعلاها برجان مخروطان تخترق حرباتهما الجوّ على علوّ ١٥٠ متراً. وداخل هذه الكنيسة يناسب خارجها بمحاسنه من حيث السعة والنقوش والبراعة الهندسية. هذا فضلاً عن ما في الكنيسة من الذخائر الثمينة كقبور الملوك المجوس الثلاثة وعظام القديس بطرس الرعائية وسيف الملك كرلوس الكبير وآنية للتقديس ثمينة جداً. وفي كولونية ابنية أخرى شهيرة كمتحفها الغنيّ بالآثار النصرانية القديمة وآثار الفنون الجميلة وكمعبدها المختصّ بذكر القديسة اورسلا والشهيدات رفيقاتها اللواتي قتلهنّ البرابرة في سبيل الايمان فقُبرت اجسادهنّ في هذا المشهد

وعُدنا الى ركوب القطار مساء فقضينا ضُلب ليلتنا في السفر حتى اذا اسفر الصباح نزلنا في محطة برلين

لم تكُ هذه العاصمة قبل القرن الثامن عشر سوى مدينة صغيرة لم يبلغ عدد سكّانها مئة الف نفس فاتخذها فردريك الكبير (١٧٤٠–١٧٨٦) حاضرة لمملكة بروسيا وشيّد فيها الابنية الفخيمة ودعا اليها العلماء وارباب التجارة والصناعة ولم تزل مذ ذاك الحين تتصاعد في سأم الترقي لاسيما في اواسط القرن السابق. وقد بلغت اوج العزّ والفخر بعد الحرب السبعينية لمّا جعلها الامبراطور غليوم الاوّل (١٨٦١–١٨٨٨) رأس المملكة الالمانية واجداها من المحاسن ما يحقّ لمثلها من امهات المدن. فتراها اليوم تجاري باريس ولندن بقصورها ومعاهدها العمومية الفخيمة ومبانيها الباسقة ومعابدها المستحدثة مع تجهيزها بكل الاختراعات الجديدة وتزيينها بالمكاتب العديدة والمتاحف

الفريدة وآثار الامم القديمة من البابليين الى العرب. وعدد اهلها اليوم على موجب الاحصاء الذي تمَّ في شهر اذار من السنة الجارية ٢,١٠١,٩٣٣ يَغلب عليهم الدين البروتستاني مع شيعهِ المتعدّدة ومن بعدهم الكاثوليك الذين يَنيفون على ربع المليون ثمَّ اليهود وهم فيها مئة الف. ويكثر الاجانب والغرباء في برلين فانَّ عددهم في السنة المنصرمة زاد على مليون بينهم ٨٩٠ من رعايا الدولة العلية. وموقع المدينة على نهر سپراي الذي تسير فيهِ السفن

مؤتمر برلين

كان هذا المؤتمر الاوَّل مختصاً بالدروس التاريخية على مختلف موادّها وتباين ازمنتها وهو الثاني من جنسهِ. وكان المؤتمر الاوَّل قد عُقد في رومية قبل خمس سنوات فأتى بنتائج حسنة ثم اتفق اصحابهُ بان يعقدوهُ ثانيةً في عاصمة الالمان ليتَّسع بذلك نطاق العلوم التاريخية وجعل علماء المانية مذ ذاك الحين يعدُّون اللوازم لهذه الغاية. والحقُّ يقال انهم لم يألوا جهداً في بلوغ منيتهم واصابوا الغرض فكان عدد الذين لبَّوا دعوتهم كاد يبلغ الالف عدًّا قدموا الى برلين من كل انحاء اوربَّة بل من اميركة وآسية وافريقية

﴿ تنظيم المؤتمر ﴾ مذ تقرَّر اختيار برلين لقيام المؤتمر التاريخي تشكَّل لتنظيمهِ لجنةٌ من كبار علماء كليَّتنا لينظروا في كل مقتضيات هذه الحفلة الدولية وطبعوا لذلك نشرات ارسلوها الى جميع الدول والى الكليّات والمدارس الجامعة يدعون عمدتها الى حضور المؤتمر فكان كلُّ من يُجيب الى هذه الدعوة يُعلن برغوبه الى كاتب اسرار اللجنة ويدفع مبلغاً قليلاً لا يتجاوز عشرين مركاً اي ليرة المانية تؤهلهُ لقبول كل المطبوعات المختصة بالمؤتمر. ويحقُّ لكل من اراد من العلماء المدعوّين ان يلقي خطاباً في بعض المواضيع التاريخية بشرط ان يخابر بذلك اصحاب اللجنة ليكونوا على بصيرة

ولمَّا كانت ابواب التاريخ متعدّدة يصعب استيفاء مضامينها في جمعية واحدة قسم اصحاب اللجنة التدبيريَّة المعارف التاريخية الى فروع مختلفة يرجع اليها العلماء على حسب ابحاثها. فكان فرعٌ للتاريخ القديم ولتاريخ اليونان والرومان وفرع لتاريخ القرون

الوسطى ولتاريخ الازمنة الاخيرة . ومن الاقسام التي خصوها بالنظر تاريخ الشرق وتاريخ الدول الاسلامية . وكان العلماء الذين طلبوا الانضواء الى هذا القسم الاخير اكثر من سواهم لما يترتب على تاريخ الشرق من الخطر وعظم الشأن

﴿ مقدمات المؤتمر ﴾ لم تدخر بلدية برلين وسعاً في تهيئة الأندية التي يحتاج اليها اصحاب المؤتمر لاجتماعاتهم العلمية فخصت لذلك ارحب معاهدها وابدعها اعني دار الندوة الالمانية ومنتدى مجلس الاعيان . وفي تلك الدار الدواوين الفسيحة المزدانة بالنقوش البهية والحُجَر الواسعة والمكاتب والمطاعم . وبقربها مباني أخرى ذات الغُرَف المتسعة الارجاء افردتها كلها لاشغال المؤتمر

واقامت لجنة التدبير في خدمة المؤتمرين فئات خاصة تسعى في صوالحهم وتفيدهم كلَّ ما يحتاجون اليه مدة اقامتهم في المدينة كتعريف منازل برلين ومشاهدها . وكانت فئة أخرى مختصة ببريدهم ومكاتباتهم ونقل الاخبار بينهم اما بالتلغراف واما بالتليفون . وكذلك عيّنت اللجنة افراداً من اهل برلين رصدتهم لخدمة كل جنس من الوافدين وميّزتهم بالعلامات الخاصة على حسب لغاتهم

وفي اليوم السابق لافتتاح المؤتمر اخذ الوفود يتواردون من كل فجّ وأوب الى المدينة . وكانوا يأتون دار الندوة حيث ترحب بهم اللجنات الخاصة وتدوّن اسماءهم وعنوان سكنهم في برلين ثم توزّع عليهم نشرات المؤتمر في اربع لغات اي الالمانية والانكليزية والافرنسية والايطالية فتبيّن لهم كلَّ ما يلزمهم معرفته من امور المؤتمر وجلساته . وكانت تتحف ايضاً كل وافدٍ بدليل واسع يتضمّن كلَّ اوصاف برلين مع خارطة بديعة ترسم جميع احيائها ومبانيها . وهذا الكتاب قد صنّفته اللجنة لفائدة اهل المؤتمر . وكانت تضيف الى ذلك شارة محفورة تمثل إلهة الحكمة فتعطيها لكل عضو ليمتاز بها ويعرفه رصفاؤه والمأمورون جميعاً فلا يعوقوه في دخوله وخروجه ويساعدوه في كلّ مهامّ المؤتمر

وفي مساء ذلك النهار نحو الساعة الثامنة استدعت بلدية برلين كلَّ افراد المؤتمر على اختلاف الجنسيات لتتلو عليهم آيات الترحاب وتعرّف بعضهم بالبعض الآخر تسهيلاً لاشغال المؤتمر . فلمّا انتظم سلكهم قام رئيس البلدية وافتتح كلامهُ بالسلام على الوافدين معرباً عمّا تالته برلين من الشرف بقدوم هؤلاء العلماء الذين تفتخر بهم دولهم

ويرنعون في بلادهم لواء المعارف والآداب. ثم ابرز رسالةً اتفذهـا الامبراطور غليوم تلغرافيًا لاصحاب المؤتمر يشكرهم على مجيئهم الى حاضرة مملكته ويتأسف على كون الاشغال لم تمكّنهُ من استقبالهم بنفسه لتجوّله في انحاء بلادهِ. وأُديرت على الحضور المرطبات والحاويات. ثم خُتمت هذه الحفلة نحو الساعة الحادية عشرة

وفي ضحى اليوم الثاني الواقع في ٦ آب عُقدت الجلسة الاولى الافتتاحيَّة العامَّة تصدَّرت فيها العمدة البرلينيَّة وقام خطباؤها كلٌّ على نوبتهِ فتكلموا في غاية المؤتمر وفوائدهِ وما يترتَّب على انعقادهِ من تعزيز الدروس التاريخيَّة الى غير ذلك من المواضيع الشريفة وكانوا يرحبون بممثلي الدول الاجنبيَّة ويُطرئون همَّة اصحابها. ثم قام هؤلاء المندوبون واجاب كلٌّ منهم بلسانهِ شاكرًا باسم دولتهِ ومبديًا الرجاء بان يكون هـذا المؤتمر باعثًا جديدًا على رفع شأن درس التاريخ ورابطًا وثيقًا بين العلماء

وبعد نجاز الخطب اختارت اللجنة الالمانيـة علماء اجانب مشهودًا لهم في بلادهم ليرأسوا حفلات المؤتمر العموميَّة وتنازلوا لهم عن التقدُّم في الجلسات العموميَّة. وبذلك ظهر الاخاء والمساواة بين جميع انصار العلم. وكذلك الحفلات الخصوصيَّة لكل فرع من التاريخ كان يتصدَّر فيها مع علماء الالمان غيرهم من رصفائهم الاجانب لا يلحظون في اختيارهم سوى الاهليَّة والعلم

﴿ مباحث المؤتمر ﴾ هذا المجال واسع لا يمكننا استيفاء اقسامهِ في هـذه المقالة. وقد بلغت الابحاث التي خاض فيها المؤتمرون فوق المئة نذكر هنا بعضها للافادة

كان للتاريخ القديم في هذا المؤتمر مقام ممتاز فخطب العلَّامـة البلجكي فرنتز كومون (F. Cumont) في تاريخ دين البابليين وعلاقاته مع السيَّارات السبع. وخطب العلَّامة ماسپرو (G. Maspero) في آثار مصر التاريخيَّة ومساعي العلماء الاوربيين في انقاذها من عَيث المفسدين. وخطب ايضاً في تاريخ مصر القديم الأثريُّ الانكليزي غرنفل (B. P. Grenfell) فوصف اكتشافات البرديّ في الفيُّوم. وكذلك العلامة رَيسنر (G. Reisner) من علماء كمبردج في امريكا وصف الدافن الملكيَّة من السلالة الرابعة المكتشفة في مصر. وتلاهُ العلامة الالماني بورخرت (L. Borchardt) تزيل مصر فافاض في ذكر الدافن الملكية من السلالة المصريَّة الخامسة التي وقفت عليها البعثة الالمانية في بوصير. واتَّسع لوغرين (Legrain) العلامـة الفرنسويّ في

اكتشافات كرنك العجيبة التي سبق الشرق فوصفها في سنته الثامنة . وتكلم المعلم الارلندي ماهافي (S. P. Mahaffy) عن امبرات مصر وملكاتها القديمات . اما الاستاذ غونكل (H. Gunkel) من غيشن فانهُ قابل بين الآثار المصرية وروايات الكتب المقدسة ليبين ما بينهما من التوافق

ومن المقالات المنوطة بالتاريخ العبرانيّ والاراضي المقدسة مقالة المعلم الانكليزي وليم دافيس (T. W. Davies) في مشروعات اليهود الدينية بعد رجوعهم من بابل ومقالة المعلم النمساوي سلّين (E. Sellin) في حفريات اريحا والآثار الكنعانية التي ترقى الى اكتشافها

وتعددت الخطب في تاريخ اليونان وتاريخ الرومان قبل ميلاد المسيح فكان بعضها في اكتشافات البعثات العلمية وبعضها في مسائل خاصة بافراد من علماء اليونان كارخيميدس وغيره ومنها في المستعمرات اليونانية . ومنها ايضاً في تاريخ الاتراسكيين الذين خلفهم الرومان . وفي الفنون اليونانية والرومانية

اما التاريخ بعد المسيح فانَّ الابحاث فيهِ تنوَّعت فمنها ما كان دينياً ومنها ما كان مدنياً ومنها ما يتناول عموم البلاد ومنها ما يختصّ ببلد واحد او امة واحدة او شخص واحد وذلك سواء في القرون الاولى او القرون الوسطى او الاجيال المتأخرة لانَّ التاريخ يعمّ كل هذه المواد . وقد ألحق البعض بهذه العلوم التاريخية مباحث أخرى كتاريخ الفنون والآداب والهندسة واخبار الرسوم والشرائع وتاريخ اللغات والعلوم الطبيعية وغير ذلك مما لا ينحصر في حيّز التاريخ لكنهُ يربط بهِ نوعاً فمن المقالات التي استلفتت الابصار مقالة السريّ وليم رمساي (W. Ramsay) في النظام الكنسيّ في بلاد آسية الصغرى من حدود القرن الرابع الى الحادي عشر مستنداً الى الآثار التي اكتُشفت في كل الجهات . وكل يعلم ما للخطيب من الفضل في تلك الحفريات وانهُ مكتشف ضريح القديس ابرقيوس المزيَّن بكتابة تُعدّ من اخطر الآثار النصرانية . ومنها خطبة الالمانيّ لوفس (F. Loofs) من كلية هال في مجمع سرديقة سنة ٣٤٣ . ومنها فصل حسن للايطالي ريكوبونو (S. Riccobono) في رسوم الملك يستنيان وتأثير النصرانية فيها . وكذلك بيَّن الاستاذ الهولندي پيپر (F. Pijper) من كلية ليدن فضل الكنيسة في إبطال الرقّ في القرون المتوسطة

اما تاريخ الشرق والاسلام فاخصّ ما سمعناه خطاب للبرنس الايطالي كايتاني (L. Caetani) في اصول التاريخ الاسلاميّ . وكان لكلام الخطيب الوقع الحسن لانهُ ممَّن برزوا في هذا البحث وقد اشتهر بتاريخهِ الايطاليّ عن ظهور الاسلام وانتشارهِ وهو اوسع كتاب رُضع في هذا الصدد . وخطب العلّامة بكر (C.H.Becker) من اساتذة هيدلبرغ البارعين في اقتصاد العرب المالي في بداءة الفتح المصري . ومن الخطب التي استجادها الحضور خطبة افرنسية لحضرة الاب لامنس في خلافة ابي بكر وعمر بعد وفاة صاحب الدعوة العربية . وقد انتهزنا نحن فرصة تقدمة بعض مطبوعات كليتنا لاهل المؤتمر لنبيّن ما للسوريين من الهمّة في نشر الآثار التاريخيَّة . وهو بحث سنعود اليهِ ان شاء الله في بعض اعداد مجلّتنا

فمن هذا النظر الاجمالي يرى القرّاء ما نجم عن هذا المؤتمر من الفوائد وما جرى فيهِ من الابحاث المهمّة وكنّا وددنا لو ارسلت دولتنا العليّة والحكومة المصريَّة مَن يمثلهما في هذا الاجتماع العلميّ ليستقوا من مواردهِ ويقتبسوا من انوارهِ ويبعثوا بين مواطنيهم روح الغيرة في مجاراة علماء اوربّة . وكفى بهذه الاجتماعات الدوليّة نفعاً انَّ كبار العلماء واساتذة الدول المتفرّقين يتقربون الى بعضهم وتتبادل افكارهم والنور كما قيل ينبعث باحتكاك العقول

ولم تشأ اللجنة التنظيميَّة أن يتفرَّغ العلماء لابحاثهم دون ان يأخذوا نصيباً من الراحة فتفنَّنت لتجعل لهم سكنى برلين لذيذةً مفيدة فتارةً كانت تجمعهم للأدب يأنسون بها في جملة الاصحاب وافاضل الجلساء وتارةً كانت تدعوهم الى زيارة متاحفها وآثارها وتقيم في خدمتهم من يكون لهم دليلاً عريفاً . وحيناً كانت تُعدّ لهم السكك الحديدية ليزوروا نواحي المدينة وخصوصاً القصور الملكيَّة في پُستدام (Postdam) . ومما زرناهُ متحف القيصر فردريك لاسيما القسم الشرقيّ منهُ وهناك عاديات نقلوها من كل انحاء الشرق من نقوش وادوات وحليّ وطنافس واسلحة تشعر كلُّها بترقي الشرقيين في التمدُّن في الاجيال السالفة . وفي هذا المتحف خصوصاً واجهة قصر المشتّى وهو البناء العجيب الذي اقامهُ كما يرجّح بنو اميَّة على طرف بادية الشام فتحف بهِ جلالة السلطان عبد الحميد قيصر الالمان فنُقلت حجارهُ الى برلين وشُيّدت كما كانت في البادية . وقد اخذنا العجب من عظمة هذا الاثر وهندستهِ الجميلة ونقوشهِ الرائعة التي تمثل ضروب النبات

والحيوان واعمال اهل البادية (راجع المشرق ١ : ٥٧٧ و ١٠ : ٥٧٨) . وفيه ايضاً قسم مختص بالآثار البوزنطيَّة القديمة تكثر فيه التصاوير والنقوش والمنحوتات والمنسوجات واعمال الفسيفساء والطُّرَف الصناعية العجيبة . ومعظم هذه الآثار دينيٌّ محض اتَّخذهُ البوزنطيون لعبادتهم . وقد لحظنا في جملة هذه الآثار تصاوير حفريَّة وتماثيل مجسَّمة بالخشب والحديد والرخام ما فيه دليل لامع على انَّ البوزنطيين لم يعتبروا اكرام التماثيل والدُّمى مخالفاً للعبادة المسيحية (راجع مقالتنا في هذا الشأن ص ٤٣٠)

ومما نُقل حديثاً الى برلين عاديَّات غاية في الحسن اكتشفتها البعثة الالمانية في تركستان قريباً من تخوم الصين وقد وصفها العلَّامة البرليني فون لوكوك (A. von Lecoq) بخطبة القاها في مؤتمرَي برلين وكوبنهاغ وابرز صورها بالنور الكهربائي فانذهل الجميع لتقدُّم الصناعة والفنون في تلك البلاد القاصية في الاجيال السالفة . وكان من جملة هذه الآثار كتابات اسطرنجيليَّة ترتقي الى القرن السابع للمسيح تنبئ بانتشار النصرانية في تلك الجهات . وقد وُجدت هناك ايضاً بقايا من الشيعة المانويَّة وكتاباتها وتعاليمها هذا فضلاً عن آثار التتر والمغول وقبائل الترك القديمة التي لم يُعرف من احوالها سابقاً الَّا الشيء القليل

مؤتمر المستشرقين في كوبنهاغ

انتهى المؤتمر الاوَّل الذي حضرنا جلساته في مساء الاربعاء الواقع في ١٢ آب فودَّعنا المعارف والاحباب وتحفَّزنا للسفر الى عاصمة الدنيمرك حيث كان موعد المؤتمر الثاني بعد يومين

ركبنا القطار صباح الخميس من برلين ومعنا نحو عشرين من علمائها رافقونا ليحضروا مؤتمر كوبنهاغ . والسكَّة الحديديَّة تقطع المسافة بين المدينتين بنحو ١٠ ساعات فيسير القطار شمالي المانية بين البحيرات والسهول في مقاطعة مكلنبرغ . وهذه المقاطعة قليلة الخير وتربتها لا تصلح للزراعة وكذلك مدنها العامرة ليست هناك بعديدة اخصُّها لوبك والمدن الواقعة على سواحل بحر البلتيك مثل كونسبرغ ودنتسيغ وستاتين وقد ارتفع قدر هذه المدن واتَّسعت تجارتها بعد فتح قناة كيل بين بحر الشمال وبحر البلتيك . وفي ظهيرة النهار بلغ بنا القطار الى روستك وهي على شاطئ البحر بازاء بلاد الدنيمرك يفصل بينهما البلتيك بمسافة نحو اربعين كيلو متراً كان يقطعها الركاب في السفن . واليوم

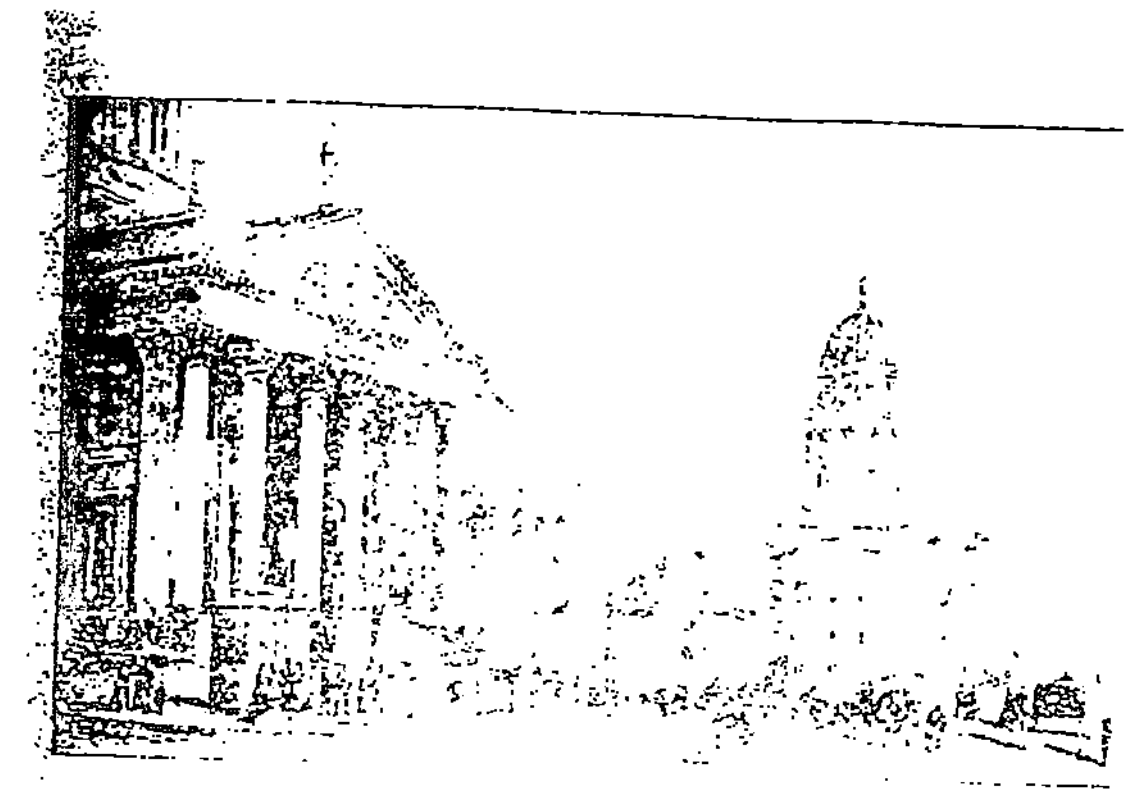

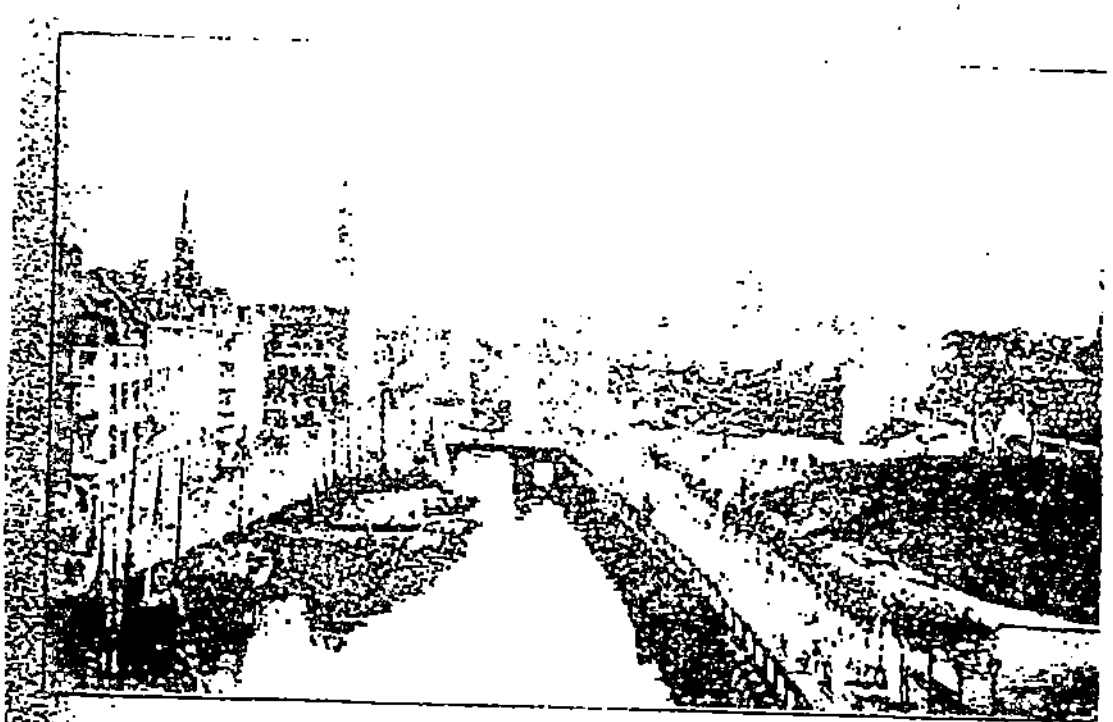

صورة كورنيش عاصمة بيسرك وبحرها

قد اخترعوا طريقةً جديدةً لنقل الركاب فانَّ القطار الحديدي اذا بلغ ساحل البحر يجري منهُ الى السفينة مع ركابهِ فتنقل السفينة القطارَ الحديدي برمَّتهِ فاذا بلغت السفينة بلاد الدنيمرك خرج القطار بخاره من السفينة الى البرّ وواصل سيره . وفي هذه الطريقة اقتصاد كبير للوقت وللمصاريف . وقد اخذت شركات السكك الحديديَّة تجري على هذا المنوال في امكنة اخرى كما رأينا بين ايطالية وصقلية مركبًا ناقلًا لتواطر السكَّة الحديديَّة بينهما . وقد اتَّفقت مؤخرًا دولتا فرنسة وانكلترة على العمل بذلك في مضيق المَنْش لنفع البلادين

بلاد الدنيمرك متألفة من عدَّة جزائر او ارخبيل ومن شبه جزيرة فالبحار تحدق بها من اكثر جهاتها وتجعل هواءها معتدلًا مع وقوعها بين الدرجة ٥٣ و٥٧ من العرض الشمالي وسكَّانها اليوم نحو ٢,٣٠٠,٠٠٠ وكانوا يبلغون ثلاثة ملايين بنيف قبل ان تستولي بروسيا سنة ١٨٦٤ على ثلاث مقاطعات كبيرة من بلادها وقد أحفظ ذلك الدنيمركيين وهم لا يزالون حتى اليوم يسرُّون العداوة للالمانيين وينفرون عنهم ويجاهرون بمثالبهم

وبلاد الدنيمرك زاهية عامرة وتربتها حسنة تكثر فيها المنتجات والمواشي الراعية والاحراج الواسعة . اما اهليا فطباعهم دمثة وهم فرهون يحبُّون الاعمال الشريفة ويسعون في ترقية بلادهم ومع انكبابهم على الاشغال تراهم رزينين ملازمين السكينة والصمت لا تكاد تسمع صوتهم في الشوارع . ولغة اهل الدنيمرك من فروع اللغات الجرمانية تشبه اللغة الاسوجيَّة والنروجيَّة وهم يدرسونها ويعدلون عن غيرها الَّا الفرنسويَّة فانَّهم يتعلمونها في مدارسهم ويفضلونها على اللغة الالمانيَّة . وفي مؤتمر المستشرقين اختار الدنيمركيون اللغة الافرنسيَّة كاللغة الرسميَّة مع الرخصة للعلماء بان يتكلَّموا بلغتهم الاصلية اذا شاؤوا

كوپنهاغ عاصمة الدنيمرك قائمة على الطرف الشرقي من جزيرة كبيرة تدعى سيلند بازاء بلاد اسوج التي تُرى شواطئها على بعد نحو نصف الساعة . وهي من اجمل مدن اوربَّة الحديثة فيها الابنية الشاهقة والاسواق الرائجة والساحات المتسعة والبيوت العامرة لا ينقصها شيء من اسباب التمدن العصريّ . واذا مررت بشوارعها وأيتها رحبة يزيد عرضها على خمسين مترًا تسير فيهِ السابلة والدرَّاجات والعربات والاوتومبيل والترامواي ولكل صنف طريقهُ الخاصّ بهِ لئلَّا يحدث بينهم ازدحام . والدرَّاجات في كوپنهاغ اوفر منها في

باريس ولندن ترى راكبيها بالمئين لا يختلف في ذلك ذكورهم واناثهم حتى سمعتُ احد رفقتي يقول انَّ كوبنهاغ احقّ من غيرها بان تدعى مدينة الدرّاجات. وقد نمتْ كوبنهاغ في نصف هذا القرن الاخير حتى بلغ عدد سكانها ٤٢٦,٥٠٠ ومع ضواحيها ٥١٤,٠٠٠ وفيها مقام الملك الذي هو اليوم فردريك الثامن. امَّا الدين الوطني فالبروتستانية منذ عهد الاصلاح اللوتراني الموهوم. وقد اقرَّت الدولة بحريّة الاديان منذ نحو خمسين سنة فاخذت الكثلكة تسترجع حقوقها السابقة وهي التي اوات بلاد دنيمرك قديماً من سوابغ النعم ما تنطق به تواريخهم. والكنيسة الرومانية تكرّم بعض ملوكهم بصفة قدّيسين وليست كوبنهاغ عاصمتهم سوى اثر احد الاساقفة الكاثوليك اسمهُ ابشالوم ابتناها سنة ١١٦٧ وجعلها حصناً حصيناً في وجه القرصان والغزاة. وترى اليوم تمثالهُ على واجهة المجلس البلديّ في زيّ الاساقفة على رأسهِ التاج وفي يمينهِ العصاة الرعويّة

القينا عصا الترحال في كوبنهاغ في اصيل النهار وكان الآباء اليسوعيّون المقيمون في المدينة اسرعوا لاستقبالنا فاتزلونا في مدرستهم وتخذّوا بنا شأن الاخوة باخوتهم. ولآباء رهبانيّتنا في كوبنهاغ مدرستان عامرتان الواحدة على اسم القديس اندراوس وهي اقدم في رَبض المدينة على مسافة ساعة منها يقصدها الشبان العديدون لطلب العلوم العالية. والثانية في قلب المدينة وهي احدث عهداً ستصبح قريباً من اخطر المدارس واعظمها شانا والحكومة مع كونها بروتستانية اعربت غير مرّة عن رضاها بتعليم المدرستين وخوّلت اصحابها الامتيازات الشرفيّة

وما لبثنا بعد ساعة من الراحة ان دُعينا الى مجلس البلديّة حيث اعدَّ ارباب الحكومة وعمدة كاية كوبنهاغ ردهة كبيرة لاستقبال وفد هذا المؤتمر الثاني فتُليت آيات الترحيب وتلا رئيس الكليّة نبأ برقيًا ارسلهُ جلالة الملك للعلماء المستشرقين وكان حينئذٍ بعيداً عن عاصمتهِ فلمّا عاد اليها بعد ثلاثة ايام حضر بشخصهِ احدى جلسات المحفل العلميّ ووجّه الخطاب الى كلّ من ممثلي الدول الاجنبية. والملك رجل دمث الاخلاق لَيّن الجانب يؤانس كلّ من يقترب منهُ. وقد رأيناهُ يوماً مع كريمتهِ في باب حديقة يمرّ بهِ الناس فيسلمون عليهِ ويرد على جميعهم السلام كانهُ واحد منهم. وهو لم يملك الّا منذ سنتين وقد خلف اباه كرستيان التاسع الذي طالت مدتهُ ٤٣ سنة

*

قلنا انَّ هذا المؤتمر الثاني هو مؤتمر المستشرقين اعني انهُ خُصَّ بالمباحث الشرقية على اختلاف انواعها ولغاتها . وهو الخامس عشر من جنسهِ اذ يُعقد كل سنتين او ثلاث سنوات . وكانت حفلتهُ الاولى في باريس سنة ١٨٧٣ ثمَّ عُقد بعد ذلك في معظم حواضر اوربَّة كلندن وبرلين وليدن وڤينة وستوكهلم . وكانت حفلتهُ الاخيرة في مدينة الجزائر . وتشهد الاعمال التي نُشرت من هذه المجتمعات العلمية ما نجم عنها من الفوائد للآداب الشرقية عموماً والعربيَّة خصوصاً

لا نُطيل الكلام في وصف هذا المؤتمر فانَّ ترتيبهُ كان كترتيب المؤتمر السابق الَّا انَّ موادَّه كانت الشرقيَّات ولما كانت الشرقيات متَّسعة تشمل بلاداً شتى كالصين واليابان والعراق ومصر وفارس والشام ولغات مختلفة كاللغات الساميَّة واللغات الايرانيَّة والتتريَّة والهندوجرمانيَّة أُفرد لتلك البلاد وتلك اللغات محافل خاصَّة كما جرى في برلين للتاريخ . وكان لكلٍّ من اصحاب المؤتمر شعار خاصّ ايضاً يُعرفون بهِ ويخوَّلهم عدة انعامات كالسير مجاناً في الترامواي والدخول في المتاحف والمعاهد الخاصة لا يرى احد شارة المؤتمرين على صدر عالم الَّا ورأى نفسهُ مشرَّفاً بخدمتهِ . حتى ان الاهلين اعدُّوا ايام المؤتمر كأيام عيد وطني فدعوهم الى زيارة مآثرهم واثاروا لاكرامهم حديقة واسعة تُدعى بحديقة تيڤولي اقاموا فيها الالعاب النارية وعزفوا فيها المعازف الطربة ثم ختموا تلك المظاهرات الولائيَّة بمأدبة فاخرة توفَّرت فيها المسرَّات وشربوا انخاب ممثلي كل الدول ودقُّوا الحانهم الوطنيَّة

اما اشغال المؤتمر فانَّ مدارها كان على كل احوال الشرق من آثار وتاريخ ولغة وآداب وهي لو جمعت لأتافت على اربعة او خمسة مجلدات ضخمة لا يسعنا سوى ذكر بعضها ممَّا يفيد بلادنا . فمن ذلك عدَّة خطب ألقاها المستشرقون في العاديَّات العبرانيَّة وتاريخ بني اسرائيل اخصها لستانلي كوك (St. A. Cook) من اساتذة كمبردج في حفريَّات فلسطين والتاريخ الاسرائيلي ثمَّ مقالة في هيكل جزيرة اسوان وآثارها المكتشفة حديثاً (اطلب المشرق ١٠ : ٦٧٣ و١١ : ٥١) للدكتور پاريرا مندس H. Pereira) (Mendez من نيويورك . ومنها مقالة في العادم الفلكيَّة والرياضيَّة عند الاشوريين للاب اليسوعي الالماني كوغلر (F. X. Kugler) . وخطب يسوعي آخر تزيل كليتنا البيروتيَّة سابقاً الاب بِرِك في آثار كتابيَّة ارمنيَّة قديمة . وخطب العلامة الفرنسوي هوارت

(Cl. Huart) في مقامات ابن ناقية من كتبة القرن الحادي عشر وتكلّم الاستاذ لمبروس (Sp. Lambros) من كليّة اثينة في المكاتبات التي تداولها السلطان بايزيد والاحبار الرومانيون . وبحث الاثيني كارولديس (P. Carolidis) في اقدم مسجد صلّى فيه المسلمون في القسطنطينيّة . وكان موضوع كلام الاثري الفرنسوي ماسينيون (L. Massignon) عن مقابر المسلمين في بغداد وما طرأ عليها من التغييرات . وخطب حضرة الاب لامنس في البادية والحيرة لدى بني امية واستطرد الى ذكر القصور التي تُرى حتى اليوم في بادية الشام لاسيما قصر مشتّى الشهير فرّج كونهُ من آثار الامويين . وسنثبت هذه الخطبة في صفحات المشرق . وقد اتّخذ الفقير كاتب هذه الاسطر كمادة خطابه في المؤتمر الآثار الكتابيّة في التآليف الاسلاميّة كالتوراة والانجيل والزبور وصحف ابراهيم وموسى وما عرف منها الكتبة المسلمون فاثبتوه في مصنفاتهم وانتقد هذه المنقولات واشار الى اصلها

ومن المسائل الجليلة التي عُرضت في هذا المؤتمر فاستوقفت انظار اصحابه مسئلتان خطيرتان : الاولى مسئلة مُعجم عربيّ جامع يسدُّ خلل المعجمات السابقة يكون مبناهُ على التآليف العربيّة ويوضع على اسلوب علميّ كالقواميس المستحدثة مع بيان معاني الالفاظ الاصليّة والفرعيّة والمجازيّة وتعريف اشتقاق بعضها من بعض . وكان الخطيب المتكلم في هذا الموضوع مدير المجلة الاسيويّة الالمانية الدكتور فيشر (A. Fischer) فعيّن المؤتمر لجنةً للنظر في هذا الامر ووجود الطريقة العمليّة للقيام بالمشروع . اما الثانية فتختص بالآثار البنائية والكتابات التاريخيّة التي على المساجد والقبور والابنية والقصور لتُجمع فتُنشر اقساماً على حسب المدن والبلاد . وقد تكلّم في هذا العدد العلامة السويسري فان برخم (M. v. Berchem) الذي نشر اربعة اجزاء من هذه الاثريّات الاسلاميّة . وهو ساعٍ في مواصلة العمل وقد طلب من كلّ محبي الآثار العربيّة ان يؤازروه في هذا المشروع العظيم

وكان ختام هذا المؤتمر في ٢٠ آب فكرّرت عمدة كوبنهاغ شكرها للعلماء الذين شرفوا مدينتهم بعقد هذا المجمع العلميّ في عاصمتهم . ثم اتفق المؤتمرون على ان يتخذوا اثينة بعد سنتين كمقام المؤتمر السادس عشر . وياليتهم يختارون دفعةً أخرى بلادنا كمنتدى جمعيتهم العلميّة ليفتش حضورهم بيننا الدروس الشرقيّة ويعلّموا مواطنينا الجدّ والنشاط

في احياء الآثار الدفينة . وقد قفلنا راجعين من الدنيمرك ثاني يوم بعد نهاية المؤتمر على طريق همبورغ فنقلتنا سفينة المانيَّة الى مدينة كيل فعاينَّا ذلك الرسى العجيب الذي فيه يُقيم الاسطول الالماني ورأينا القناة الحديثة التي تجمع بين بحر البلتيك وبحر الشمال وكان فتحها كبدإ عصر جديد للبحريَّة الالمانيَّة

ولم يمرّ علينا يومان حتى رجعنا الى باريس ومنها الى مرسيلية فمصر فالاسكندريَّة فبيروت ولم نقض في هذه الرحلة سوى شهر ونصف فكانت لسرعة تنقُّلنا في البلاد اشبه بحلم يتخايل للنائم فيصبح واذا بحلمه قد توارى لم يبقَ لهُ منهُ سوى الذكر او كبرق لمع فبهر نورهُ البصر لمعةً ثم انمحى فصار اثرًا بعد عين فسبحان الباقي الذي وحدهُ لا يعمل فيه النهار مدى الادهار

كتاب نُخَب الذخائر
في أحوال الجواهر

عُني بنشره وتعليق حواشيه الاب لويس شيخو اليسوعي

تمهيد

ان بين العلوم الطبيعيَّة فرعًا يفرده العلماء للبحث عن الجواهر والاحجار الكريمة وقد عرف القدماء هذا العلم منذ القرون السالفة في كل الامم وقد اتسع فيه اليونان كارسطو وديوسقوريدس ثم الرومان كبلينيوس الطبيعي وكذلك العرب من بعدهم عُنوا بهذا العلم لمافيه الجلة . اما غايتهُ فقد عرَّفها الحاج خليفة في كتاب كشف الظنون حيث قال (٢ : ٦٢٦) : «علم الجواهر علم يُبحث فيه عن كيفيَّة الجواهر المعدنيَّة : البريَّة كاللآلئ واللعل والياقوت والفيروزج . والبحريَّة كالدرّ والمرجان وغير ذلك ومعرفة جيّدها من رديئها بعلامات تخص (تختصّ) بكل نوع منها ومعرفة احوال كلّ منها وغايتهُ وغرضهُ ظاهر» . والمؤلف في هذا الباب بعض المصنَّفات قد ضاع اكثرها الّا كتابًا شاع بينهم وهو كتاب ازهار الافكار في خواصّ جواهر الحجار صنَّفهُ ابو العبَّاس احمد بن يوسف القاهري الشهير بالتيفاشيّ المتوفى سنة ٦٥١ه (١٢٥٣م) ومن هذا التاليف نسخٌ عديدة في خزائن الكتب الشرقيَّة وقد نشرهُ بالطبع العلامة الايطاليّ انطونيو راناري A. (Raineri في فيرنسة سنة ١٨١٨ ونقلهُ الى الايطاليَّة ثم قام المستشرق الفرنسي كليمان موالّه (Cl.-Mullet) فنقلهُ الى الافرنسيَّة وزاد عليه ملحوظات شتى في المجلَّة الاسيويَّة (J.A.,6e *Série*, XI , 1-81 etc) استمارها من كتاب الاحجار لارسطو ترجمة لوقا بن سرافيون وكتاب سرّ